غزة الحرب والمسرح
لم تترك يد البطش والدمار الاسرائيلي شيئا في غزة الا ونالت منه كل شيء حتى بحرها الساحر الذي عشت حياتي كلها اتأمل امواجه وصياديه وقصص السفن الغارقة وحفظت اسماء اسماكه عن ظهر قلب اسمعه ليلا ينتحب غزة وما جرى لها.
كان لنا مسرحا يطل على البحر اسمه مسرح المسحال دمر قبل الحرب بخمس سنوات وظل مسرح الشوا وهو اكبر واهم واقدم مسارح غزة. لم يسلم ودمر خلال هذه الحرب مثل مسرح الهلال الذي مسحوه عن الوجود قبل ١٤ سنة. انهم مصممون على مسح عمري وذكرياتي وتفاصيلنا الجميلة والحالمة التي عشناها. قبل ايام كنت اسير بجانب مسرح الشوا تذكرت كيف تم بناءه وكنت وقتها ادرس في مدرسة الكرمل الثانوية وكنت اقدّم وقتها مسرحيات لزملائي الطلبة اخرجها وأمثلها بصحبة طلبة آخرين سنة ١٩٨٤.
كان الجميع يخمن ما هذا المبني الرائع الذي يشيده هؤلاء الاجانب فمنهم من قال منزل لرئيس بلدية غزة الحاج رشاد الشوا ومنهم من قال بل قصر للملك حسين وقائل قال: بل مركزا للمخابرات الامريكية. كان الجميع ينظر باندهاش لهذا المبني الذي استمر بنائه شهورا طويلة وكنت مثلهم لم ابلغ بعد ١٨ عاما.

تمر السنين وتشاء الاقدار سنة ١٩٩٠ بان يكون اول عرض مسرحي يقدم على مسرح الشوا الثقافي بعنوان إبريق الزيت أنا أحد ابطاله. ويومها بعنا جميع التذاكر مسبقا ولكن جاء موعد العرض ولا أحد يتواجد بالصالة. خرجت ابحث عن الجمهور اين اختفي الناس الذين اشتروا التذاكر وفجأة رأيت جمهرة امام مبنى المرور تقف تنظر من بعيد الى المسرح فأحسست ان للمكان رهبة والناس مترددين او خائفين ان يصعدوا درجات المبنى والدخول الى المسرح. خاصة انني رأيت بعض الاصدقاء انا بنفسي بعت لهم بطاقات الدخول. فأوعزت للمخرج ان يذهب إليهم ويدعوهم للدخول فذهب وتحدث معهم، ثم دخلوا المسرح يتأملون الجدران العالية وصورة الحاج رشاد الشوا الكبيرة التي كانت تتوسط المكان. دخلنا قاعة المسرح ويومها رفعت الكلكل او النايلون عن خشبة المسرح لأول مرة، وكان الخشب مدهون بالزيت مما جعلنا كممثلين نجد صعوبة بالحركة وكنا خائفين من الانزلاق.

وبعد السلام الوطني والوقوف دقيقة صمت على ارواح الشهداء فتحت الستارة وبدأ العرض وانتهى بالتصفيق الحار. وبعد انتهاء العرض قال لي المخرج سعيد البيطار يبدو ان العرض اعجبهم، فأخبرته ان لا أحد شاهد العرض. طوال العرض والناس تتأمل الجدران والمسرح وتفاصيله الجميلة.. الناس لم ترى بحياتها بلاط مثل الموجود بالمكان.

هذه بعض من ذكرياتنا الجميلة التي دمرها الاحتلال. كان دوما المسرح هذا المكان الساحر. يومها حينما مررت انا وزوجتي من جوار المسرح وهو مدمر الا من بعض بقايا جدار لا يزال صامدا والدرج الجميل. جلست على الدرج وسالت دمعة من عيني وانا أتأمل حالنا كمسرحيين وكأن قدرنا ان نعيش الحرب كل سنتين، وتدمر مسارحنا كل سنتين، وتذوب أحلامنا وآمالنا كل سنتين. حرب يتبعها حرب وكأن قدرنا ان نبني وهم يهدمون، أن نحيا وهم يقتلون، آه يا رفاق المسيرة ودعتكم شهداء وبعضكم لا يزال تحت الانقاض الى الان. اين اختفت اصواتكم التي كانت تملأ المسرح فرحا وألما وهمسا وصراخا، كنتم تركضون كالفراشات على خشبة المسرح. اوجعتم قلوبنا ولم يعد بنا قوة لاحتمال المزيد من الحزن والوجع والقهر على فقدانكم.
أكثر من ثلاثين فنان فقدنا خلال هذه الحرب اعرفهم جميعا. لا أجد مفردات رثاء تعبر عما يجول بخاطري نحوكم. كنت دوما اقول انني لم اختار اسمي ولا وطني ولا عائلتي ولكنني اخترت المسرح بمحض ارادتي والمسرحيين بكل الدنيا هم عائلتي الكبيرة التي أحبهم وانتمي إليهم.
ومع ذلك لا أستطيع ان اربط او اشبه المسرح بما يحدث الان في غزة لان المسرح هو الفرح والوعي والثقافة والرقي والانسانية والجمال والبناء.

اما ما يحدث الان في غزة فهو على العكس تماما من المسرح؛ فهو المجاعة والهدم والدمار والبشاعة وتخريب وقتل كل شيء، بدئا بالإنسان مرورا بالمباني. ان المنظر العام لغزة هو سينوغرافيا لدمار هائل لا يوصف، صنع بأيدي اسرائيلية وامريكية بمنتهي الحقد والكره والقهر الذي يعكس ما وصل اليه الانسان من جبروت وقهر لأخيه الانسان. نشعر اننا نعيش في غابة كبيرة سقطت بها كل الشعارات والقيم والمبادئ التي نسمعها وسدت اذاننا حول الديمقراطية وحقوق الانسان والمرأة والطفل ومجلس الامن وهيئة الامم والمحاكم الدولية التي لا تنفذ قراراتها الا على الضعفاء. منذ ما يقارب العامين ونحن نباد على مرأ من العالم. العالم الذي لا يحرك ساكنا سوى من بعض الاصوات الحرة هنا وهناك وبعض الدول الأوربية وقليلا جدا جدا من الدول العربية التي انتصرت لإنسانيتها ولنا. وهي من تعطينا بعضا من الاكسجين الذي يساعدنا على البقاء ويعزز صمودنا.

ما يسيل الان في غزة ليس دما فقط ولكن لحم التصق بالإسمنت وارواح هامت تبحث عن محبيها، وعقول ذهبت بلا رجعة، واطفال انزوت في خيامها لا تعلم بعد لماذا هي وحيدة بعد ان فقدت كل افراد عائلتها.

ما يحدث في غزة لا يشبه بأي دراما سابقة انتجت من أعظم شركات الانتاج. انها المشهد الاعظم للتوحش الذي لا يشبهه شيء ولا يستطيع القلم وصفه مهما بلغت البلاغة والفصاحة باللغة. ببساطه ما يحدث لا يوصف وسوف نحتاج بعد الحرب لعشرات السنين بحثا وتشخيصا لما حدث، وستظل اثاره باقية لأجيال قادمة.

هنيئا لكم أيها الفنانين فواثبتم بهذه الحرب انكم والكتاب والصحفيين، الاكثر نبلا وشجاعة وانتماء الى الإنسانية، ووقوفكم مع الحق ضد الظلم والظلام، من خلال مواقفكم التضامنية مع غزة وشعبها. وأعلم ان العديد منكم قد يدفع ثمنا باهظا نتيجة تلك المواقف.
تصلني رسائل من كل فنانين العالم تشد من ازرنا، تعلي صوتها أن اوقفوا الحرب والقتل والتجويع والحصار. الحرية لغزة لفلسطين وشعبها. نعم يحق لي ان افتخر بانتمائي للفنانين الاحرار الفنانين الحقيقيين، فقد ثبت بهذه الحرب ان القيم التي نقدمها على المسرح حول مفهوم الحرية، والعبودية، والديمقراطية والاضطهاد والحب والكره والسلام والجمال والرحمة والاخوّة، لم تكن مجرد شعارات بل كانت ايمانا راسخا بالقلوب، مؤمنين به وبمعانيه السامية وبنبل الفكرة.

كم زاد فخري بكم خلال هذه الحرب عائلتي من المسرحيين الذين أحبهم. أنتم من عزز صمودي وساعدني على البقاء. لكم الحق ان تفخروا بأنفسكم وسط هذا الصمت المريب والصمت العالمي على كل هذه المجازر الذي جعلتنا نشعر اننا نعيش في زمن شريعة الغاب.. البقاء للأقوى والقوي يأكل الضعيف .

ولكن مهما تآمروا عليك ايها المسرح الشاهق بكبرياء، فستظل اب الفنون جميعا، ولن تنهزم، ولن تنهار، وستعود اقوى وأجمل كعادة الفرسان. فمنذ آلاف السنين وانت باق، ويحرسك ارسطو وافلاطون واسخيلوس، وشكسبير، وإبسن وبريخت وستانسلافسكي وأوغسنو بوال وسعدالله ونوس.
والالاف من عظماء المسرح الذين غادرونا جسدا وعاشوا بيننا بكتاباتهم العظيمة والذين لازالوا بيننا حافظين الوعد والعهد بالقبض على الكلمة الحرة. وابقاء شعلة المسرح مضاءة تنير الطريق للأجيال القادمة لمن يبحث عن معنى الحرية والجمال والانعتاق والابحار بمعنى ان تكون انسانا وتبقى انسان، وتحمل هذه الصفة والدرجة العليا للمخلوقات كلها.

انتظر دقات المسرح الثلاث وشاهد العرض.

علي ابو ياسين
٢٠٢٥/٨/١٨